(2)
أثر نظرية التطور على فكر أمين الخولي

احتلت نظرية التطور عند دارون (1809 - 1882) مكانتها المحورية في الفكر العربي في عصر النهضة حيث أخذ التيار العلمي العلماني على عاتقه الترويج لهذه النظرية في ثقافتنا العربية، وكانت لهذه الجهود أصداؤها المختلفة بين التيار الإصلاحي ما بين مؤيد ورافض لها، وبداية يمكن القول أن شبلي شميل (1853 - 1917) كان أول من سعي إلى نشر الداروينية في ثقافتنا، ولكن دعوة شميل لها أنكرت قواعد الأديان، وكان يقول «فكون الإنسان يمكن قوام شأنه، وصلاح حاله بدون الديانات فما لا يجب أن نشك فيه، بل لا يصلح حالة الأمة إلا كلما ضعفت فيها شوكة الديانة، ولا يقوي شأن الديانة إلا كلما انحط شأن الأمة»[1] فكان غرض شميل توظيف الداروينية من أجل إرساء دعائم الفلسفة المادية من خلال شرح بخنر (1824 - 1897) على نظرية دارون وكان لهذا أثره السيئ على رجال الدين فيقول إسماعيل مظهر (1891 - 1962) « كان للمذهب الداروني منقولاً عن العلامة

(1) شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء، مجموعة الدكتور: شبلي شميل، مطبعة المقتطف، مصر 1910، جـ1، ص51.

«بخـنر» في عقول المصريين من الأثر ما حمـل الناظر فيه على الوقوف إزاءه وقـف الريب والشـك، ومما لا مشـاحة فيه أن اتخاذ مذهب النشـوء ذريعة لإثبات المادية، ومجاراة الدكتور شميل له كان بلا شك خير وسيلة لاستفزاز رجال الدين في بلد إسلامي تأصلت فيه كثيراً من المذاهب العتيقة»[1].

وقد حـاول الأفغـاني (1838 - 1897) أن يقاوم دعـاوى الماديين، ورأي أن نظرية دارون لا تفسر العديد من الأشـياء، وذلك لأننا إذا نظرنا إلى الأشـجار القائمة في غابات الهند، والنباتات المتولدة منذ أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنـاً، وأصولها تضرب في بقعـة واحدة، وفروعها تذهب في هواء واحد، وحين نسـأل: ما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيته، وأشكاله، وأوراقه، ... إلخ؟ أظن أنه لا سـبيل إلى الجواب سوي العجز[2] ورغم اعتقاد الأفغاني بأن شميل كان مخطئاً حين حاول أن ينشر مذهب دارون رغم أنف أهل الأديان، إلا أنه حين سـئل عن قولة المعري: والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد، قال إن مقصد أبي العلاء واضح هو النشوء والارتقاء، ومن ثم فإن العرب قد سـبقوا دارون، بـل يذهب الأفغـاني إلى أكثر من هذا حين قـال بأن مقولة الانتخاب الطبيعي موجودة في البداوة، وحضارة الإسـلام على السواء، وذلك في انتخـاب الزوجات النجيبات من الأمهـات، أو في حرص العرب على الانتخاب الطبيعي في تحسين الحيوان، والحفاظ على أنساب الخيل[3] وهنا نلاحظ توظيف

(1) إسماعيل مظهر: ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء، المطبعة العصرية، القاهرة بدون، ص54.

(2) جمال الدين الأفغاني: الرد على الدهريين، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، دار الكاتب، مصر 1968 ، ص135.

(3) جمال الدين الأفغاني: النشوء والارتقاء، الأعمال الكاملة، ص251.

الأفغاني لبعض مقولات الداروينية من منطلق السبق العربي الإسلامي، ولكنه رفض توظيف شبلي شميل لها في إرساء دعائم الفلسفة المادية التي تنكر القضايا الكبرى في الأديان.

وقد انتقد إسماعيل مظهر سوء فهم الأفغاني لنظرية التطور، وتسفيهه لأرائها اعتقاداً منه بأن المذهب يؤدي إلى الإباحة الاجتماعية، ورأي أنه ردد بعض العبارات عن النظرية تنم عن معرفة سيئة بالمذهب فيقول «يدعي السيد الأفغاني أن من نظريات دارون ما يقول بأن كلام هذا العلامة في (أصل الأنواع) يفضي بالبرغوث لأن يصبح فيلاً بمرور الوقت، وكر الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثاً، وهذه الأسطورة التي تبادرت إلى ذهن هذا المؤلف أنها من مقومات مذهب دارون في (أصل الأنواع) لم تكن إلا خرافة نقلها بعض من لا يوثق بعلمه، وتلقفها السيد الأفغاني من أفواه الناس من الصحف الإخبارية فراح يقوض بها من مذهب دارون بما شاء له وهمه»[1].

وعلى الرغم من الجدل الكبير حول الداروينية في الفكر العربي الحديث، إلا أن أمين الخولى جاء في عام 1927 - بعد تكليفه بتدريس مادة الأخلاق في كلية أصول الدين - ليدخل هذه النظرية في أكبر مؤسسة دينية في العالم الإسلامي - الأزهر - حيث قام بتأليف محاضرات في الأخلاق، جمعت في كتابه عن (الخير)وقد أعطى الخولى للنظرية مساحة كبيرة في محاضراته، وكان يرى أن مذهب النشوء والارتقاء «هو مذهب طبيعي يتصدى للبحث في الحياة، ونشوء الأنواع، وكيف تم ذلك، ولكنه يقرر أيضا نواميس طبيعية

(1) إسماعيل مظهر: ملقى السبيل، ص129.

مطردة تجرى على المعنويات جريانها على الماديات فعم تطبيعه سائر فروع المعرفة الإنسانية، ومظاهر الحياة البشرية المختلفة»[1].

ويشرح أمين الخولى مبادئ الدارونية فيرى أن الانتخاب الطبيعي قوة دائمة الفعل فى استخراج التغايرات العرضية في العوالم العضوية كافة، نافية ما كان منها مضرا، مبقية على ما كان مفيداً صالحاً، بما يلائم طبيعة حالات الحياة المحيطة، ووفقاً لمبادئ الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، وتناحر الأحياء ينشأ بعض الأنواع من بعض، وعلى هذا فليس بين الأنواع فروقاً ثابتة، ولا هي ظهرت على الأرض هكذا منذ خلقت، والإنسان فى جملة الأحياء لم يكن هكذا منذ خلق بل هو دائم التحول والتغير منذ القدم، وقد مر بأحوال مختلفة حتى انتهى منها إلى الحالة الحاضرة[2] وهنا نلاحظ من شرح أمين الخولى بيان أثر الزمن، والبيئة، والظروف فى تطور الحياة البشرية.

ويدافع أمين الخولى عن نظرية التطور، ويرى أن الخلاف الذي حدث في الغرب حولها، ومهاجمة رجال الدين لها، كان بسبب ما جاء فى التوراة من تفصيل عمليات الخلق والإيجاد فى ستة أيام، وظهور الأحياء نوعاً نوعاً.[3] وفى هذا يتفق أمين الخولى مع حنا مينا (1900 - 1964) الذي ذهب إلى «أن سلاح خصوم النشوء من رجال الدين، والمتجلببين بجلباب التوراة، فى أن التوراة تناقض محاولات رجال الدين في التعويل على النظرية»[4].

(1) أمين الخولى: كتاب الخير، دار الكتب المصرية، 1996 ص87.
(2) المرجع نفسه، ص88 - 89.
(3) المرجع نفسه، ص99.
(4) حنا مينا: الداروينية المؤسسة، الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 1982، ص35.

ويؤكد أمين الخولى - من خلال نقله عن مقدمة إسماعيل مظهر (لأصل الأنواع) - على أن دارون وأتباعه من الداروينيين لم ينكروا الألوهية، ولهذا فالنظرية لا تخالف الإسلام فيقول «إن لامارك رأس الباحثين المحدثين لا ينكر وجود الله بل يسلم، ويقرر أنه الذي خلق الأصل، وجعل فيه هذه القابلية للتطور، كما تصنع الساعة لتسيير وحدها على ساعة هذا العالم، ثم هذا دارون مؤسس المذهب يؤثر عنه أنه يقول بأنه يستحيل على العقل الرشيد أن يخالجه الشك في أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة، وتلك الأنفس الناطقة المفكرة يصدر عن صدفة عمياء، وهذا المذهب لا يخالف الإسلام لأنه ليس فيه إنكار للإله، ونحن لا ننكر أن من القوم ماديون يرفضون التأليه والألوهية، ويعللون ظهور العالم والأحياء فيه بما يقال فى فكرة النشوء، لكن ذلك شيء ليس من أصول المذهب ولا مقرراته، ولا تلحقه تبعته، بل المذهب كما قال العالم الطبيعي توماس هكسلى يستحيل نقض الألوهية بمقتضاه»[1].

ويرفض أمين الخولى القول بأن الإسلام يعارض نظرية التطور، ويرى أن ما بدا بين الإسلام والنظرية من تعارض «فإن ذلك نتيجة لحمل أوزار الغير، كالتزامنا القول بتفاصيل التوراة فى الخلق والنشوء والأحياء، مع تقرير تحريفها وبطلانها، وما هذا الالتزام إلا إكراه لآيات القرآن على أن تؤدى معاني تلك التفصيلات مضافاً إليها الشروح الإسرائيلية، وبهذا الإكراه والالتزام نقرر مخالفة المذهب للإسلام»[2] ويرى الخولى أن القرآن قرر

(1) أمين الخولى: كتاب الخير، ص101 - 102 وأيضا: إسماعيل مظهر: مقدمته لترجمته لكتاب دارون أصل الأنواع، دار العصور، القاهرة 1928، ص29.
(2) المرجع نفسه، ص102.

فى إجمال تام خلق الناس من تراب وطين، وخلقهم أطواراً دون أن يذكر أي تفصيل، وترك مسألة التفاصيل للسنن العلمية، وامتد دفاع الخولى عن نظرية التطور فى القول بأن سنن الأديان توافق ما أقرته نظرية التطور من سنن علمية فيقول «تجد حياة الأديان والإصلاح كلها، وكفاح الرسل عليهم السلام، والقادة المصلحين جاريا على سن طبيعي ثابت، وجاء في القرآن: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: 76 - 77].

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: 17].[1]

وحاول أمين الخولى أن يؤصل نظرية التطور - متأثراً بإسماعيل مظهر في مقدمته لأصل الأنواع - داخل سياق الفلسفة الإسلامية، فيقول بأننا نقرأ النشوء والارتقاء فى رسائل أخوان الصفا، وفى كتب الرئيس ابن سينا + 428هـ، وابن طفيل + 581هـ وفى كتب ابن مسكويه + 421هـ، حيث ذهب ابن مسكويه فى كتابه (الفوز الأصغر) إلى القول بوحدة الحياة فى هذا الكون فقال بأن المعادن لتصل أخرها بأول النبات، والنبات متصل آخره بأول الحيوان، والحيوان يتصل آخره بأحط الإنسان، ثم لا يزال الإنسان يترقى حتى يصل إلى درجة الملائكية فى أشخاص المختارين[2] ولا شك أن

(1) المرجع نفسه، ص117.

(2) المرجع نفسه، ص96. وأيضا: إسماعيل مظهر: مقدمة ترجمة كتاب دارون أصل الأنواع، ص29 - 30. وأيضا: سلامة موسى: نظرية التطور وأصل الإنسان، سلامة موسى للنشر والتوزيع، 1957 ص36.

الفلسفة الإسلامية قد أخذت عن الفلسفة اليونانية الشيء الكثير في ذلك، والتي بينت ما بين أنواع الأحياء من صلات وروابط، ومن رأيها أن أعلى مراتب الحيوان شديد الصلة بأدنى مراتب الإنسان، وأدنى مراتب الحيوان متصل بأعلى مراتب النبات، وأدنى مراتب النبات متصل بأعلى مراتب المعادن[1].

وبعد شرح أمين الخولي للدارونية، ومحاولة تبريرها من خلال الإسلام والثقافة الإسلامية، يحاول تعميم مبادئ الدارونية على كافة صنوف الحياة، ورأى أن سنة النشوء والارتقاء تجرى باطراد على جميع أعمال الأفراد، وتغيرات حياتها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأدبية، وعلى وفاق هذا الناموس ومقرراته ترقى الجماعات، وتنشأ الحكومات، والصناعات، والمتاجر، والآداب، والعلوم، والفنون، وهكذا سارت فكرة النشوء ناموساً عاما ينطبق على جميع ما عرف في الكون، فلا يوجد شعب يعيش في برج من العاج لا ينفذ إليه أثر ما حوله، وقد رفض الباحثون ذلك كله، لأن العالم دائم التفاعل في حياته، خاضع في تلك الحياة لسنن النشوء والتدرج، والتأثير والتأثر، كما يرفض الباحثون اليوم التسليم بأن أمة قد بدلت بين عشية وضحاها حالاً بحال، وانتقلت من ضلال إلى هدى، أو من جهل إلى علم، أو من تناحر إلى سلام، بل لابد أن يكون لذلك التغير عوامله التي عملت فيه بنظام ثابت، وكان لها من القوة ما جعلها صالحة للبقاء، فغيرت مجرى حياتها تغيراً تدريجياً جريا على سنن النشوء والارتقاء[2] ويبرر الشيخ أمين الخولي سيادة نواميس النشوء والارتقاء على تطور الحياة العلمية في الأزهر فيرى أن

(1) حنا مينا: المرجع السابق، ص55.
(2) أمين الخولي: كتاب الخير، ص105 - 106.

الأزهر فى فترة من تاريخه كان يحرم دراسة الرياضة، وما يتصل بها من علوم الكـون كتقويم البلدان، والعلوم الطبيعية، ولم يكن يؤيد فكرة تدريسـه العلوم المدنية سـوى الشـيخ محمد عبده، وعدد قليل مـن العلماء، ولكن لأن فكرة تدريس هذه العلوم كانت تملك الصلاحية، فقد انتصرت، وتم تدريس هذه العلوم بالأزهر، لأن الفكرة كانت صالحة للبقاء.

ومما لا شك فيه أن دعوة أمين الخولى إلى سيادة النظرية التطورية فى النظر إلى العالم ككل إنما تكشف عن تأثره الواضح بأفكار الاتجاه العلمي العلماني بصفة عامة، وأفكار إسماعيل مظهر بصفة خاصة، فقد كان الاتجاه يرى أن «نظرية التطور ليست معرفة فحسب، لأننا لا نقتصر فيها على الوقوف على تاريخ الأحياء بل نكتسـب منها مزاجاً واتجاهاً، لأنهـا تجعل التطور مذهباً حيوياً، والارتقاء ضرورة اجتماعية، وبالتالي فالنظرية ليست معرفة علمية فحسـب، وإنما هي مذهـب اجتماعي يحمل الأمة عـلى أن تطالب بحقها فى التطـور، وتدافع عن حريتها، وتحطـم الأغلال التي تعطل ارتقاءها كما هي منهج فلسـفي في التفكير»[1] ورأى إسماعيل مظهر أن النهج التطوري يسود كل الحياة، وأن سـلطان هذا الارتقاء النشوئي، ونواميسه لم يخرج عنه شيء فى الكون حتى الدين والفلسفة خضعت لهذه النواميس.[2]

وما يؤكد فرضية تأثر أمين الخولى بالاتجاه العلمي العلماني، هو احتكاكه المباشر بهذا التيار، حيث قام الشـيخ بالاشـتراك مع سـلامة موسى (1877 - 1958) وآخرين بتأسـيس جمعيـة (المصري للمصري) للأهـداف الوطنية[3]

(1) سلامة موسى: نظرية التطور، ص8 - 9.

(2) إسماعيل مظهر: ملقى السبيل، ص52 - 53.

(3) حسين نصار: أمين الخولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1996، ص28.

وكذلك كان هناك مساجلات فكرية واضحة بينه وبين إسماعيل مظهر حول أصالة العقلية العربية.[1]

ولكن على الرغم من تأثر الخولى الواضح بأفكار الاتجاه العلمي العلماني حول نظرية التطور، فإننا ينبغي أن نميز حدود الاختلاف بينهم، وذلك لأن دعوة هذا التيار للدارونية، قد وظف على يد بعض أعلامها - كشبلي شميل - لإنكار دور الأديان فى حياة الأمم، أو توظيفها فى تحجيم دور الدين فى حياة المجتمع، واقتصاره على الجانب الأخلاقي فقط دون غيره، فكان إسماعيل مظهر يرى «أن الدين فى ذاته ضرب من ضروب المعتقد يهيئ الإنسان بوازع مما بعد عقليته بضبط سلوكه نحو المجموع، إذا تعارضت مصلحة الفرد ومصلحة المجموع، وبذلك الوازع يحتفظ المعتقد الديني بخضوع المصالح الفردية الخاصة للمصالح الاجتماعية العامة[2] فى حين أن الشيخ أمين الخولى قد اتخذ من نظرية التطور رؤية منهجية فلسفية استطاع توظيفها فى النظر إلى التجديد اللغوي، والتجديد الديني، ودراسة تاريخ الأديان... إلخ، وبالتالي فالخولى قد وظف النزعة التطورية لبث الحيوية فى الفكر الديني، وتقديم رؤية مستنيرة للإسلام تراعى ظروف الزمان، والمكان، والمجتمع، ولاشك أن هذه نقطة خلاف فاصلة بين الخولى من ناحية والاتجاه العلمي العلماني من ناحية أخرى.

ويمكن بيان أثر نظرية التطور على الشيخ أمين الخولى فى موقفه من التجديد اللغوي، والديني، والعديد من القضايا الأخرى فى فكره.

(1) كامل سعفان: أمين الخولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1983، ص157.
(2) إسماعيل مظهر: ملقى السبيل، ص52 - 53.